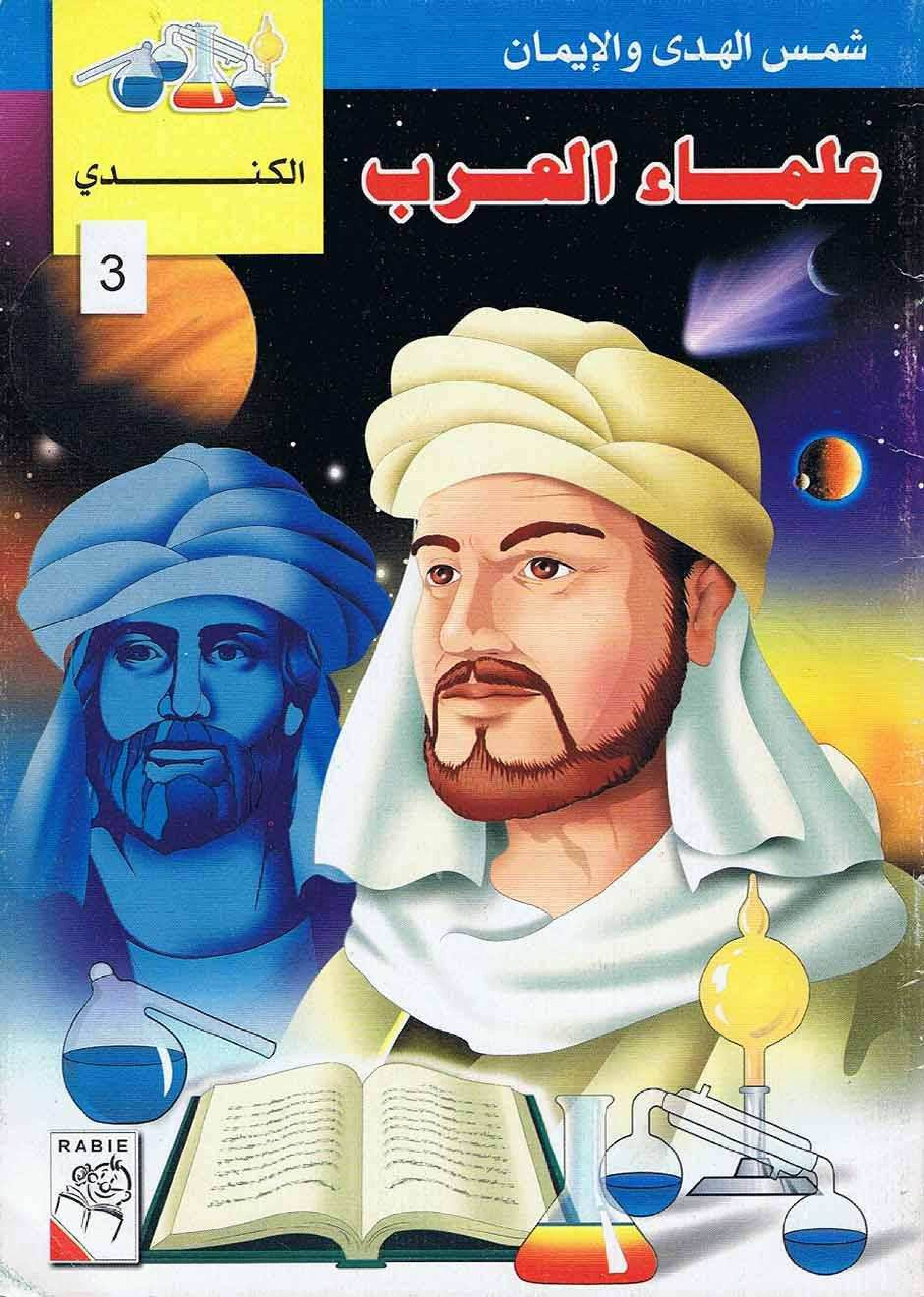

شمس الهدى والإيمان
الكندي
3
علماء العرب
RABIE

شمس الهدى والإيمان

علماء العرب

1 - 16 جزءاً

الكنـدي

تأليف

محمد كمال

دار ربيع للنشر
RABIE PUBLISHING HOUSE
سورية حلب : ٢٢٢٤٧٠٨ دمشق : ٢٢٣٠٢٨٣

الكندي

الفلسفة

أطلق العربُ على العالِمِ الكِنديِّ لقبَ (فيلسوفِ العرب) لأنّه أولُ مَنْ وفّق بين الدينِ والفلسفة ، ونفى عن الفلاسفة تُهْمةَ الكفر والإلحاد التي كانوا يُرمَوْن بها .

والفلسفة تعني تفسيرَ المعرفة تفسيراً يعتمد على العقل ومقاييسه ، ولهذا خاضَ الفلاسفة في جميعِ ميادين المعرفة ، كالمنطِقِ والأخلاق وعِلمِ الجمالِ والعقائد الدينية .. فمن هو الكندي ؟

حفيد الملوك

هو أبو يوسف ، يعقوبُ بن إسحاقَ الكنديُّ المنسوب إلى قبيلةِ (كِنْدَةَ) العربية . ولد في الكوفة سنة 185 هـ – 801 م . وقد سرت في عروقه دماءُ الملوك من عهد أجداده القحطانيّين الذين كان لهم حُكْمُ اليَمَن في الجاهلية .وكانَ جدُّه الخامسُ الأشعَثُ بن قيسٍ قد وفدَ على الرسولِ الكريم مع وَفْد كِنْدةَ في موكبٍ يتألف من ثمانين فارساً مكحَّلي العيون ، وعليهم الحُللُ الحريرية الزاهية ، فلمّا أسلموا قالَ لهم الرَّسولُ ﷺ :



– فما بال هذا الحريرِ في أعناقكم ! ؟ فما كان منهم إلا أن مزَّقوا هذه الثيابَ ، والقَوْا بها أرضاً ، امتثالاً لشريعة الإسلام .

وقد حَسُن إسلامُ الأشعث ، فتخلى عن مُلْكه ، ثمّ هاجر إلى الكوفة ، وشارك في معركة اليرموك والقادسية ونهاوند ، وكان مع الوفد الذي بعثه سعدُ بنُ أبي وقّاص إلى مَلِك الفرس يدعوه إلى الإسلام .

ولما ماتَ الأشعث بن قيس ، تحركت الأطماعُ السياسيةُ في نفس ابنه محمّد بن الأشعث ، فتمكّن في عهد الخليفة الأمويّ يزيدَ بنِ معاويةَ أن ينفردَ بإمارة المَوْصِل . ثم حدثت اضطراباتٌ سياسيةٌ داميةٌ أدَّت إلى قتلهِ وهَدْم دارِه .

أمّا عبدُ الرحمن بن محمّد ، الجدُّ الثالث للكنديِّ ، فقد كان حاكماً على سِجسْتانَ في بلاد فارس ، ثم غدا قائداً للجيش في البصرةِ والكوفة . فثارَ على الأمويين ، وجرت بينه وبين الحَجّاجِ والي العراق معاركُ طاحنةٌ ، انتهت بمقتله وضياعِ أحلامه .

وأمّا إسحاقُ والدُ الكنديِّ فقد أصبح والياً على الكوفة سنة 159 م في عهدِ الرَّشيد . فكان يسكن في قصرِ الإمارة الذي وُلِد فيه فيلسوفُنا الكبيرُ يعقوب بن إسحاق الكندي .

المدرسةُ الأولى

كانت الكوفةُ مدرسةَ الكندي الأُولى ، فقد مات أبوه وهو طفلٌ صغيرٌ ، فلم يستمتعْ بالعزِّ الذي كان عليه أجدادُه ، لا سيما وقد هاجر معظمُ بني الأشعث وتشتتوا في البلاد .

ولكنَّ أُمَّهُ الواعيةَ الحصيفةَ لم تشأ أن يضيعَ ابنُها مع ما ضاع من أُبَّهةٍ ومجدٍ ، فرأت أن العلمَ خيرٌ لهذا الفتى مِن تَرَفِ الحُكْمِ وعزِّ الرياسة ، فدفعته إلى تعلُّم القراءةِ والكتابةِ ، وحفظِ القرآنِ الكريم ، وتعلُّمِ الحديثِ الشَّريفِ وأصولِ الفِقهِ ومبادئ النحو ، ومهَّدَتْ له الطريقَ إلى قراءة الشِّعْرِ العربيِّ وإتقانِ لغة العرب ، لمعرفة أسرارِ البلاغة وأسبابِ الفصاحة .

ولما استكملَ هذه العُدَّةَ التي لابُدَّ منها ، نظرَ حولَهُ فرأى أساتذته من رجالِ الفِكرِ والعلم قد تباينتْ آراؤُهم ، وتعدَّدت فِرَقُهم ، يناظرون ويناقشون بحرّيةٍ تامّة لا يقيِّدُها حاكم ، ولا يَحُدُّ مِنها سلطانٌ ، فارتاحَ الكنديُّ إلى هذا الوسط المتحرِّرِ ، وأخذَ يخوضُ فيما يسمّى بـ (عِلمِ الكلام) لأنّهُ علمُ الخاصَّة من العلماء الذين يُجِلُّون العقلَ ، ويجعلونه المعيارَ في الحُكْمِ على الأمور .

ولكنَّ الكنديَّ الذي نضجَ عقلُه وتفتَّحتْ مَلَكاتُه ، رغِبَ في أن يتجاوزَ علمَ الكلام إلى الفلسفة ، لما فيها من تنوُّعٍ في الأفكار ، وتشعُّبٍ في الآراء ، فليس أمامَه إلا أن يشدَّ الرِّحالَ إلى بغدادَ ، فهناك مُلْتقى المثقفين ومُنتجَعُ الفلاسِفة .

في بغداد

كانت بغدادُ آنئذٍ عاصمةَ العِلْمِ ومركزَ الحضارةِ العربيةِ الإسلامية ، وكانت حركةُ الترجمةِ تُواصلُ مسيرتَها منذ عهدِ الخليفةِ المأمونِ الذي أرْسَى

دعائمَها إلى جانب النشاطات العلمية الأخرى ، فأَكبَّ الكنديُّ في بغداد على تعلُّم اللغة اليونانيّة ، وقراءةِ كتبِ أَرسطو في المنطقِ والطبيعةِ والأخْلاقِ ، ودراسةِ ما نُقِل من كتبِ أبقراط وجالينوس في علوم الطب ، ثم درس هندسة أُقليدس وعلمَ الفلك من كتاب المِجَسْطي ، كما توثَّقت معرفته بالرياضيات التي كانت شديدة الصلة بالفلسفة .

وهكذا كان للكندي فضلٌ كبيرٌ في ترجمة هذه العلوم من اللغة اليونانية ، وجعلها ميسَّرةً أمام القارئ العربي ، بعد أن أخضع هذه الترجمات إلى الذوق العربيِ ومقتضى التفكير الشرقي ، مُلبساً إيَّاها ثوباً من العباراتِ الفصيحة والتراكيب المبسطة ، ولا يتأتّى ذلك إلا لمن هضمَ النصَّ الأصلي ، وفَهم أبعادَهَ ومراميه ، ووفَّق بين الصِّياغة اليونانيَة والصياغة العربية . إلا أن الكندي كثيراً ما كان يُغْني هذه الترجمات بالشرح والتفسير .

في بلاط الخلفاء

أخذ اسمُ الكندي يطرُقُ أسماعَ العلماء والمفكرين في عصرِهِ ، فعرفوا فيه العالِمَ المتشعِّبَ الجوانبِ ، المتعدِّدَ المنازعِ ، حتى سمع به الخليفةُ المعتصم ، فانتدبه لتعليم ابنه أحمدَ وتثقيفِه . فكان هذا الولد النجيب يسأل أستاذَه ، فيجيبه الكنديُّ عن أسئلته العلميّة والأدبية إجابات مكتوبةً في رسائلَ صغيرةٍ يتناقلُها الناسُ فيما بعد ويتدارسونها ، فكانت دولةُ المعتصم تتباهى بهذا العالِم وتتزيَّن بمصنَّفاتِهِ



إلا أن هذه المنْزلةَ السامية التي تبوَّأها الكِندِيُّ عند الخلفاء لم تكن لترضيَ سائرَ علماءِ البَلاط ، فأخذوا يَكيدون له ، ويدبِّرون له المكائدَ والدسائسَ ، لينفردوا وحْدَهم بالحُظْوةِ والجاهِ .

فهذا محمدٌ وأحمدُ ابنا موسى بنِ شاكرٍ ، كانا عالِمينِ بالهندسةِ والحيَلِ ، فأوغرا صدر الخليفة المتوكِّلِ على الكندي ، ممّا دفع المتوكل إلى ضربهِ وإبْعادِه عن البَلاطِ ، حتّى إن مكتبةَ الكِنْديّ المعروفةَ بـ (الكِنْديَّة) أصبحت نَهْباً في يدِ هذين الرَّجُلين .

ولكنْ لابُدَّ أن يقعَ الإنسانُ في سوءِ فعله ، ويعاقبَ على ذميم أخلاقه . فقد كلَّف المتوكِّلُ محمّداً وأحمدَ ابنَيْ موسى بن شاكر بحفر نهرٍ قربَ قصره (الجَعْفريِّ) . فندبا لهذا العمل مهندِساً كانَ صديقاً لهما ، فحدَثَ أن أخطأ هذا المهندسُ في حساباته ، ونتج عن ذلك أن جاء منبعُ النهر أخفضَ من مجراه ، فامتنع تدفُّقُ الماءِ في النهر ، فغضبَ المتوكِّلُ ، وحمَّلهما تبعةَ هذا الخطأ ، ثم أرسلَ في طلب رَجُل اسمُه سَنَدُ بنُ عليٍّ كانا قد أساءا إليه في حضرة المتوكِّل وذمَّاه ذماً قبيحاً ، فلما حضر سَنَدٌ قال له المتوكِّلُ وهو يشيرُ إليهما :

– ما تركَ هذان الرديّانِ شيئاً من سوءِ القولِ إلّا وقد ذكراك عندي بهِ ، وقد أتلفا جملةً من مالي في هذا النهرِ ، فاخرجْ إليه حتى تتأمَّلَه وتخبرَني بالغَلَطِ فيه ، فإني قد آليْتُ على نفسي إن كان الأمرُ على ما وصفا لي أن أصلِبَهما على شاطئه .

فلما خرجوا من عندِ المتوكِّلِ أخذ محمدٌ وأحمدُ يستعطفان سنداً ، ويطلبانِ منه العفوَ عمّا زلَّ به لسانُهما ، وما فرَّطا في حَقِّه لَدَى المتوكل ، ولكنْ سنداً قال لهما :

- أنتما أعلمُ بما بيني وبين الكنديِّ من عداوة وخصام ، ولكن الحقَّ أحَقُّ أن يُتَّبعَ ، أكانَ من الجميلِ ما فعلتماه بكتبه ومراجعهِ ؟ واللهِ لا أسمع منكما أيَّ كلامٍ حتى تَرُدَّا الكتبَ إلى الكندي .

فبادرا مسرعَيْنِ ، والخوفُ من عقاب المتوكل يلاحقهما ، فردا الكتب إلى الكندي ، وأخذا منه إيصالاً بتسلُّمه إيَّاها جميعاً ، ثم رجعا إلى سندٍ ومعهما الإيصالُ ، وسألاه : وماذا عن النهرِ ؟ فأجابهما :

- إن الخطأَ في هندسة النهر سوف يزولُ عندما يفيض نهرُ دجلةَ بعد أربعة أشهر ، وبذلك يرتفع الخطأُ عنكما .

وبعد أربعة أشهر جرى الماء في النهرِ ، واستراحت نفسُ المتوكل لذلك ، فعفا عنهُما .

الكندي البخيل

لم يَنْجُ الكِنْديُّ من ألسنة الناس وقوارصِ كلامهم ، لعلهم بذلك يشوِّهون سُمعَتَه ، ويزعزِعون مكانَتَه المرموقةَ التي بلغها عندَ الخلفاء والأُمراءِ . فهذا الجاحظُ يسجِّل في كتابه (البخلاء) ما رُوِي له عن بُخْل الكندي من نوادرَ ، وما تناقلته الألسنةُ من طرائفَ .

من ذلك أن أُمَّه أرسلتْ تطلبُ منه ماءً بارداً . فقال لجاريته : املئي الكوزَ بماءٍ ساخنٍ من عندها ، وأفرغيه عندنا ، ثم املئي لها الكوزَ من عندنا بالماء البارد . ولما سألَتْه الجاريةُ عن سبب ذلك قال لها بلهجةِ الفيلسوف :



أعطَتْنا جوهراً بلا كيفيَّةٍ ، وأعطيناها جوهراً بكيفيَّة . وهو يعني بالجوهر الماءَ ، وبالكيفيَّةِ البرودةَ .

ومن ذلك أيضاً أنه كان يزعم دائماً أن بداره امرأةً حاملاً ، تتوحَّمُ على كلِّ طعامٍ تشمُّ رائحتَه ، فكان الكنديُّ يطلب من الجيران أن يسعِفوا

هذه الحاملَ ولو بمِغْرَفةٍ صغيرةٍ من ذلك الطعام الذي تفوح رائحتُه . وهكذا كانتْ أطباقُ الطعام تتوالى إلى بيت الكنديّ ، تحملُ مالذَّ وطابَ من صنوفه ، فكان يقولُ لأبنائِه :

– أنتمْ أحسنُ حالاً من أصحابِ الضِّياع والأراضي الواسعةِ ، فكلٌّ منهم يأكلُ صِنْفاً واحداً من الطَعام . أما أنتم فتأكلون من كلِّ الأصناف .

ويُذكَر أنه من شِدَّة بخله وحِرْصه أوصى ابنهُ قائلاً :

– الدينارُ محمومٌ فإن صَرَفْته ماتَ ، والدِّرهم محبوسٌ فإن أخرجتَهُ فَرَّ .

حكمة الكنديّ

لم يكن اشتغالُ الكندي بالعلم ، في معظم وقته ، ليمنَعَه من لقاء الناس والاختلاط بهم ، ومعرفةِ ما تنطوي عليه النفسُ البشريّةُ من خيرٍ وشرٍّ ، وفضيلةٍ ورذيلة . فقد خَبِرَ الحياةَ الاجتماعيّةَ والإنسانيّةَ خِبْرةً تجريبيَّةً ، أهَّلَتْه لأن يُطلِقَ الحِكَمة الصائبة والرأيَ السديدَ ، بأدقِّ الكلمات وأوجزِ العباراتِ . فمن حِكَمه التي سارت بها الرُّكبان وحفِظَتْها ذاكرةُ التاريخ قوله :

– من لم ينبسطْ لحديثك فارفعْ عنه مؤونةَ الاستماعِ منك .

– اعصِ الهوى وأطعْ مَنْ شئتَ .

– لا تغترَّ بمالٍ وإن كثرَ .

- لا تطلبْ حاجةً إلى كذوب ، فإنه يُبْعدها وهي قريبة ، ولا إلى جاهلٍ ، فإنه يجعل حاجَتَكَ وقايةً لحاجته .

ولاشك في أن هذه الحِكَمَ القصيرة العميقةَ أشبهُ بالنصائح النافعة التي إذا تأمَّلَها الإنسانُ وأدامَ النظرَ في معانيها ، عرف كيف يسلكُ الطريقَ إلى المقاصد الحسنة ، ويجنِّبُ نفسَهُ الوقوعَ في كثير من الأضرار ، فالحِكْمَةُ ضالَّة المؤمِنِ أينما وَجَدها التقَطَها .

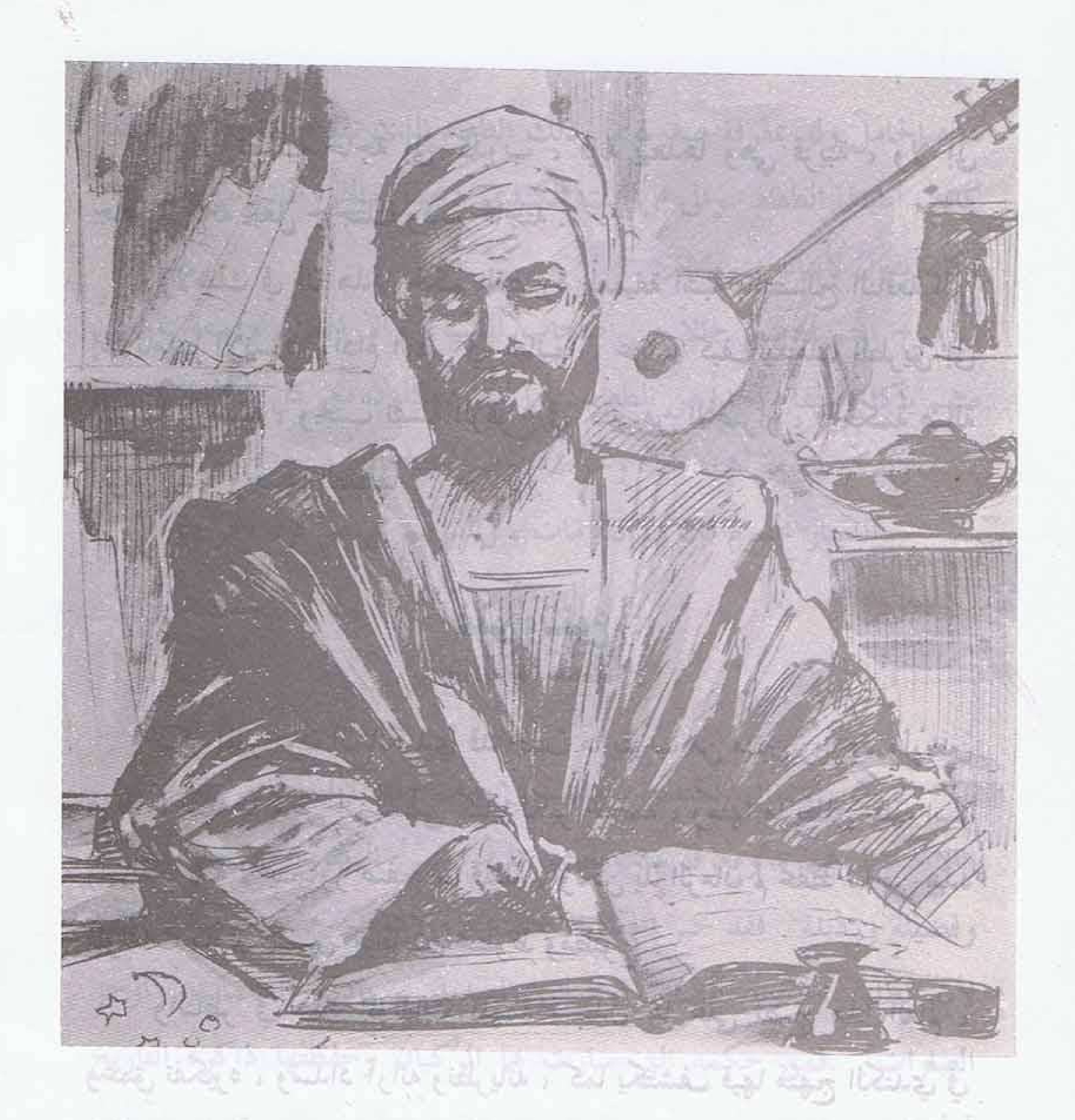
غنًى وتنوع

ذكر المؤرخون أن الكنديَّ قد خلَّفَ ما يقرب من مئتين وواحدٍ وأربعينَ مؤلَّفاً ، منها ما يمكن أن يسمى كتاباً لكِبَرِ حَجْمه ، ومنها ما يطلق عليه اسمُ رسالة ، لأنه لا يتجاوزُ صفحاتٍ قليلةً ، ولكنَّ يَدَ الزمان لم تحفظْ لنا من هذه المؤلَّفاتِ سوى خمسينَ كتاباً بين مخطوطٍ ومطبوع .

والناظر في هذه المؤلفات المهمَّة يَستدلُّ بها على نضج هذا العالم ، وعمقِ تفكيره ، وسَدادِ آرائِهِ ونظرياته ، كما يكتشف فيها مَنْهجَ الكنديِّ في التأليف وطريقَتَه في البحثِ والتصنيف .

ولما كانت معظمُ مؤلَّفاته عبارةً عن إجاباتٍ عن أسئلةٍ وَجِّهتْ إليه ، سواءٌ من أحمدَ بن المعتصم أم من غيره ، فإن الرسالة تقومُ على ثلاثة أقسام :

- أولها : الدعاءُ لصاحب السؤال بالتوفيق .
- وثانيها : تلخيصُ السؤال ، وهو عنوان الرسالة .



– وثالثُها : الإجابةُ عن السؤال والتصدِّي لموضوعِ الرسالة .

وهذه الكتب والرسائل تتوزَّع في جوانبَ علميّة متنوعة ، تشير إلى اتّساعِ أُفقِ هذا العالِم وإحاطته بمعظم علوم عصره .

لقد كان العالِمُ في تاريخنا الإسلامي لا يكتفى بفَرْع واحد من العلوم يختصُّ به ويتفرَّغ له ، كما هو الشأنُ في أيامنا هذه ، بل كان لابُدَّ له من أن يأخذ من كلِّ علم بطَرَفٍ ، ومن كلِّ فنٍّ بجانب ، ولهذا نرى الكنديَّ قد بحثَ في الفلسفة والمنطق والحساب والهندسة والموسيقا والفلك والطب والسياسة والعلوم الطبيعية وعلمِ النفس .

إنجازات الكندي

لقد استحق الكنديُّ عن جدارة ومقدِرَة لقبَ (فيلسوف العرب) اعتماداً على كتابه القيِّم (في الفلسفة الأولى) الذي أهداه إلى الخليفة المعتصم .

وفي هذا الكتاب نجد عمق آرائه الفلسفية التي عالجت مختلفَ شؤون المعرفة ، والتي جاءت موافِقةً كلَّ الموافقة لآراء أرسطو الفيلسوفِ اليوناني المعروف ، وهذا ما أدهشَ الكثيرَ من الباحثين والمستشرقين في عصرنا الحاضر حين درسوا كُتُبَه واطلعوا على أبحاثه .

لقد آمن الكندي بجدوى الفلسفة وضرورة التفكير ، في وقتٍ كان عُلماءُ الشريعة يخشون أن تتعارضَ هذه الفلسفة مع العقيدة ، وتُناقِضَ مبادئَ الدين الحنيف ، فسعى سَعْيَه إلى التوفيق بين الدين والفلسفة ، ونفي تُهمةِ الكفر والإلحاد عن الفلاسفة . إذ كان يرى أن موضوعَ الفلسفة هو معرفةُ الله ووحدانيَّته ، ومعرفةُ الفضائلِ النافعةِ لاتِّباعها ، والرذائلِ الضارَّة لاجتنابها ، وهذا هو عينُهُ موضوعُ الدين وجوهرُه الحقيقي .

وفي مجالِ الموسيقا كان الكنديُّ أولَ من وَضَع القواعدَ والأصولَ النظرية التي تُبنى عليها أنواعُ الغناء والتلحين ، فمهَّد بذلك الطريق أمامَ العلاَّمة الموسيقيِّ الفارابي الذي كان له شأنٌ كبيرٌ في هذا الميدان .

وفي مجال الكيمياء وضع الكندي عدداً من الرسائل تتضمَّن الأسسَ الأولية لصناعة العطور وتحضيرها ، ووقف يعارض بشدة تلك النظريةَ التي كانت شائعةً في عصره حول إمكان تحويلِ المعادنِ الرخيصةِ إلى ذهب .

وفي مجال علم النفس تحدَّث الكندي عن النوم والرؤيا ، وقرَّر أن النفسَ الإنسانيةَ لا تنامُ أبداً ، وإنما هي في حالةِ يقظةٍ دائمة ، وقال :

– إن النفسَ بسيطة ، ذاتُ شَرَف وكمال ، عظيمةُ الشأن ، جوهَرُها من جوهر الباري عزَّ وجلَّ ، كقياسِ ضوءِ الشمس من الشمس .

على فراش الموت

أصيب يعقوب بن إسحاقَ الكندي في آخر حياته بداءٍ في ركبَتَيْه ، أخذ يسبِّب له آلاماً شديدة مبرِّحةً ، فلم يتركْ وسيلةً للعلاج إلا حاول تجربَتَها ، فلم تُجْدِ نَفْعاً ، حتى انتقلتْ هذه الآلامُ إلى رأسه فأقعدَتْه عن الحركة والتفكير .

وفي عام 252 هـ – 864 م أسلمَ رُوحَه الطاهرةَ إلى بارئها عزَّ وجلَّ ، ولفظَ أنفاسَه الأخيرةَ ، بعد أن أمضى حياتَه بالعطاء ، وأدَّى واجبَهُ نحو العلم خيرَ أداء .

علماء العرب

سلسلة قصصية تروي الجانب الهام من حياة علماء العرب الذين كانوا وما زالوا مجال العزة والفخار.



تأليف: محمد كمال
الغلاف: هيثم فرحات





تم نشرها من قبل دار ربيع للنشر حلب ، سوريا

Published by Rabie Publishing House Aleppo , Syria
P.O.Box : 7381 Tel : +963 21 2640151 Fax : 2640153
E-mail : rabie@rabie-pub.com WWW.rabie-pub.com

